ماكينة الصرَّاف الآلي..

(١)

راح يشتري مدفناً، تفاوض مع البائع دون جدوى، وعندما تجمَّد رأي البائع علي مبلغ بعينه، شعر نوح بضيق شديد في صدره، وقتها، أحس أن جثته ستُلقي لكلاب السكك في العَراء، أو -وهو الأصعب- أنه سَيُدفن في «مدافن الصدقة» لمن لا يملك مدفناً، ويُعيَّر ابنه الصغير عندما يكبر ويعرف معني كلمة «مدافن الصدقة»، سمع صوتاً بداخله يقول: «حقاً، زماننا عاثر الحظ،أو نحن به عاثرو الحظ، فأينما تول وجهك تسمع تنهدًا وشكوى أو ترتجهم كدر»، أحس نوح بالرجفة تجتاح أوصاله وتفكك مفاصله، نفض الأمرَ من رأسه، تنهد من أعماقه، ثم أرجأ الأمر بعضاً من الوقت، هو سباق بين الموت والحياة، ازدادت حدته وسرعته بداخله، عاد للتنهد مرة أخري بمرارة، وتمتم مع نفسه وهو يركب أتوبيس الخدمة العامة: « يااااه.. يا نوح، لم تتم الأربعين من عمرك، وتبحث عن مدفن يأويك؟! ..».. كان الشارع قد ازدحم عن آخره، تصاعدت أبخرة الماء من الحلل الضخمة المملوءة بالكِرشة ولحمة الرأس فوق كانون الحطب الممتد بطول « درب المسمط» بحي الجمالية، نزل وحده من الأتوبيس، عند مدخل «المسافر خانة»، سار علي أرضية الحارة البازلتية السوداء متوجّهاً لبيته، خطواته الوئيدة في الدرب المظلم أسلمته إلي زرب من الأسئلة، تزاحم جسده بخليط عجيب غير متجانس من البشر، عادت كلمات بائع المدافن تطن في رأسه من جديد: «مدفن بعين واحدة متران في مترين بدون تشطيب بثلاثة آلاف جنيه، واللي ما معهوش ما يلزموش»، وعندما وصل نوح إلي عتبة العمارة القديمة التي يسكن بها، قبض بيده المعروقة علي دَرج السلم صاعداً إلي شقته، مستضيئاً بنور شاشة هاتفه المحمول الذي ضعفت بطاريته قبل بلوغه ناصية الشارع الذي يقطن به، فسار علي هدي حدسه، تعمَّد ألا يصدر صوتاً أثناء دخوله، أغلق الباب بحذر، وعلي وجهه تراقصت أمارات الحزن، نام بعمق بعضاً من الوقت، ثم نهض فزعاً علي صوت (كركبة) شديدة صادر من منو العمارة، هرش في صلعته، نظر لزوجته، هي ما زالت تغط في نومها العميق، بحث عن جواله القديم يتثبت من الوقت، هي الرابعة صباحاً، ثم جاء الهدوء، وخيَّم علي الليل الساحر، هدوء ساحر لا تقطعه -بين الفينة و الأخرى- إلا جرجرة جمل أو حمحمة حصان، وقبيل الفجر بقليل سمع قعقعة أوانٍ وحركة، تُنبئ عن مولد يوم جديد من العمل والمشقة، فعاد لنومه وهو يستقبل شمس الصباح الدافئة..

(٢)

نهض نوح من نومه مُتعباً، فقرر أن يأخذ «إجازة عارضة»اليوم؛ ليريح جسده المنهك، وقبل أن يشرق الصباح ويحضن الوجود بالنور، قرر نوح الخروج، كانت زوجته البدينة ما زالت تغط في نومها العميق، نظر إليها نوح وابتسم في مرارة، قال: «أي مدفن سيتسع لك أيها العجل السمين»، حمد الله أن لسانه لم ينطق كلماته، كانت بقيت مصيبة، ترك السرير، وارتدي ملابسه العادية، وتمم علي محفظة نقوده، ثم عاد؛ ليتأكد من وجود «الفيزا كارد»، قَبَّل طفله النائم علي سريره الصغير، ونزل قبل الزحمة؛ ليقبض المرتب، خرج بدون أن يحدد الوِجهة التي يجب عليه أن يقصدها، وبعد قليل من التفكير، لم يكن أمامه إلا ماكينة الصرَّاف الآلي الموجودة بمجمع المصالح بعمارة العرائس، كانت الشمسُ قد برصت، وارتعشت، والبقع البيضاء تناثرت علي سحنة الكون، أسلم نفسه لقدميه، استقل «مترو الإنفاق»، وعند محطة «سعد زغلول» نزل مُسرعاً، كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة والنصف، سار في الشارع قلقاً، لا يستر جسده إلا بيجامة مخططة وشبشب حمام، الشمس فوقه صبت صهداً، تفاعلت مع جسده الضئيل، حرارة الجو خنقته، فظل هاجس الموت يؤرقه، تلاحقت أنفاسه عندما وصل إلي مدخل عمارة العرائس، تقدَّم بعض خطواتٍ، تحلَّب ريقه علي بائع الفطير الواقف بمواجهة المسجد العتيق، مضي فصعد دَرج السلم، كانت المسافة قد ضاقت بين خطواته،أطلق أنيناً مكتوماً، أنصت لصوت زوجته البدينة ، كانت تؤنبه علي ضيق معيشتهم، تنفسها اللاهث قتله عشرات المرات، وكلما تقدم عمره يوم يسكنه الخوف أكثر، وكأنه معبأ بغبار الراكضين، وفي أذنيه سكنت الهتافات، عادت كلمة»مدافن الصدقة» تُؤلمه ، كانت عيناه تناغي

حرارة الشمس الحارقة المتسربة من كوة جانبية، رقص قلبه بين ضلوعه عندما وجد»ماكينة الصرَّاف الآلي» خالية من البشر، اقترب منها، تذكر صوت مسئول المرتبات بالمصلحة التي يعمل بها: «مرتبك يا نوح أفندي ألف جنيه بالتمام والكمال، فقانون الخدمة المدنية الجديد جمَّد المرتبات كما تعرف!!».. أخرج نوح «الفيزا كارد» من جيبه، قرر أن يسحب راتبه كله كما المعتاد، أدخل البطاقة في الفتحة المخصصة للماكينة ، ولما ظهر الرصيد علي الشاشة، دوت بداخله صرخة عالية هزت أرجاء نفسه:»راتبي خمسة آلاف جنيه؟!»، لم يمهل نفسه أن ترد عليه، كبس علي زرار «سحب» تهلل فرحاً، ودس المبلغ في جيبه، لقد اقترب الحلم من التحقق، سأشتري المدفن ولن يُعيّر ابني بدفني في»مقابر الصدقة»، وقبل أن يتحرك من أمام الماكينة سمع همهمة أصوات من حوله، عشرات من قوات الأمن المركزي تشد أجزاء السلاح صوبه، ارتعد، وهاجت معدته، تقدم إليه رئيس أفراد الأمن بصوت آمر: «انتظر يا أستاذ»، لم يكن الموقف بسهل علي نوح أفندي ،اهتزت نفسه مرة أخري، وارتجف،أرهف سمعه في جزء من الثانية، انتصب ، تقدم إليه رجل الأمن أكثر وقال له: «يا أستاذ.. لا تستخدم ماكينة الصرّاف الآلي اليوم، فقد وصلنا بلاغ من « البنك المركزي» بأن هناك خلل خطير حدث اليوم في الـ «system» العام لجميع ماكينات الصرَّاف الآلي، والأمر خرج عن كل التوقعات، وعلينا نحن رجال الأمن أن ننقذ ما يمكن إنقاذه، فإذا حضرتك أدخلت الفيزا الخاصة بك ستؤول كل مستحقاتك إلي شخص لن يتمكن البنك من استردادها إليك مرة أخري»، هز نوح رأسه وتراجع للخلف بعضاً من الخطوات، ملوحاً بالتحية لرجال الأمن علي جهدهم الرائع، لم ينطق لسانه ببنت شفة، خرج للشارع، وقد تزاحمت البهجة علي نفسه، دخل في نشيج وبكاء حارين، ثم هدأت نفسه قليلاً، راحت أقدامه تضرب الأرض، تصاعدت حولهما الأتربة، لملم جسده المفكك، هدأت نفسه وزال قلقها، وانتهي اليوم عندما قبض علي عقد شراء المدفن بعد أن وثَّقه في الشهر العقاري، ابتسم نوح وقد رأي زوجته - في غرفة نومه- مازالت تغط في نوم عميق!!